

## من فرويد إلى وينيكوت

# دراسة حول مفهوم «الموضوع» (Object)<sup>1</sup> في مدرسة التحليل النفسي

زياد مصالحة و أيمن أبو سليم

## ملخّص

منذ ظهور نظرية التحليل النفسي حتى يومنا هذا، يحتل مفهوم «الموضوع» (Object) مكاناً مركزياً. لذلك فإنّ الفهم الواسع والشامل لهذا المصطلح سيساهم في فهم «الذات» كما تناولتها النظرية. فنحن في إزاء مفهوم مركزي تنسب إليه العديد من الاتفاقات النظرية والسريية.

يصدف مصطلح «الموضوع» في الكتابات التحليلية النفسية أن يقع منفرداً أو متعلقاً بالعديد من التعبيرات مثل اختيار الموضوع، حب الموضوع، فقدان الموضوع، علاقة الموضوع، وغيرها ممّا قد يوقع القارئ غير المختص في حيرة. ويأتي «الموضوع» هنا بمعنى مشابه لما هو دارج في اللغة (مثل «موضوع تدلّهي، موضوع غيظي، موضوع حبي»، إلخ)، لكنّه لا يوحي بفكرة «الشيء» أو الموضوع الجامد والمسير، في ارتباطه عموماً بأفكار الكائن الحي أو الشخص (لابلاننش وبونتاليس، 1997)

المشكلة قد تكمن في أنّ مفهوم «الموضوع» في التحليل النفسي هو واحد من المجالات التي لم يتم تعريفها بما فيه الكفاية، على الرغم من أنّه تمّ التعرّض له في معظم أدبيات التحليل النفسي. لذلك، فإنّ دراسة هذا المفهوم في كتابات فرويد قد تواجه العديد من الصعوبات

<sup>1</sup> لاشك أنّ ترجمة "object" إلى "موضوع" تثير إشكالية كبيرة، حيث أنّها لا تعطي نفس المعنى للمفهوم بالإنجليزية، لكننا ارتأينا استعمال هذه اللفظة نظراً لشيوع استخدامها في معاجم وقواميس العلوم النفسية باللغة العربية (مثلاً عبد الرحمن العيسوي، حامد عبدالسلام زهران ومصطفى حجازي).

والإشكالات. في الواقع، لا تقدم نظرية فرويد تعريفاً موحدًا لمفهوم «الموضوع»، ويظهر ذلك جلياً في كتاباته المختلفة من خلال تعريفات مختلفة. ومن جهة أخرى لا بدّ من التطرُّق والأخذ بعين الاعتبار كل المفاهيم «المجاورة» والمتعلقة والتي غالباً ما تظهر جنباً إلى جنب مع مفهوم «الموضوع» عينه؛ مثل مفهوم «الدافع الغريزي»، «التمثّلات الرمزية»، «التقمص»، «الذات» و «العلاقات مع الموضوع» (Object relations) وغير ذلك.

لقد تطوّر مفهوم «الموضوع» في نظرية التحليل النفسي مع تطور النظرية، بدءاً بتعريفه على أنّه «شخص أو شيء خارجي يشكل هدفاً للدوافع الغريزية (النزوات)، ثم طرأ على هذا التعريف لاحقاً تغييرات وتمّ تعريفه كجزء من التركيب النفسي للشخص.

إنّ نظرية التحليل النفسي خضعت للعديد من التغييرات والتطوير بعد فرويد. فظهرت مدارس جديدة وتيارات أحدثت تغييراً جذرياً فيها. وقد استندت كل تلك التيارات تقريباً إلى تصور فرويد نفسه، ولكنها حاولت التطوير أو التأكيد على بعض مجالات النظرية والتي اعتبرت ذات أهمية خاصة. على سبيل المثال، ظهرت «نظرية العلاقات مع الموضوع»، والتي ركّزت على أهمية العلاقات الاجتماعية في المراحل المبكرة بين الطفل وأمه، ولم تركز على نظرية الدوافع الغريزية (النزوات) وعقدة أوديب كما فعل فرويد. وظهر الكثير من التمايز والاختلاف بخصوص موضوعنا المحدد (المتناول) في هذه المقالة، حيث أنّه لم يتم توسيع مفهوم «الموضوع» أو تغييره تقريباً، ومن بين كل هذه المدارس الجديدة برز تيار واحد -الذي نشأ من المدرسة البريطانية-، ساهم إلى حد كبير في تطوير مفهوم «الموضوع»، وهو التيار الوينيكتياني (نسبة إلى ونيكوت).

تركّز نظرية ونيكوت، مثل أخواتها في نظريات «العلاقات بالموضوع»، على العلاقة الأولية بين الرضيع وبيئته. ولكن الإسهام الرئيسي لهذه النظرية يكمن في محاولتها إعادة تعريف بعض المفاهيم والمصطلحات الكلاسيكية التي لم تتغير تقريباً منذ فرويد. وأدّت هذه التغييرات إلى تجديد فهمنا للبنية النفسية وإدراك الواقع. تجدر الإشارة هنا إلى أهم الباحثين في هذا المجال بارنجر (Barenger, 1975) الذي ركّز على مفهوم «الموضوع» في أعمال فرويد ومدارس علم النفس الأخرى.

في هذا المقال، سنتناول شرحاً لنظرية فرويد ونظرية ونيكوت مع التركيز على تعريف المفاهيم والمصطلحات الرئيسية، وخاصة مفهوم «الموضوع» في سياقاته المختلفة. بعد ذلك، ستجري مناقشة لجوانب المفهوم المختلفة في النظريتين والفروق بينهما، كما جاء في أبحاث بارنجر (Barenger) وفي أبحاث أخرى.

## نظرية فرويد

كان لظهور نظرية التحليل النفسي لفرويد في بداية القرن العشرين تأثيرات بعيدة المدى بل وثورية على فهم ووصف العمليات النفسية والمعتقدات السائدة في هذا الشأن حتى تلك الفترة. فمن تجاربه في استحضار الذكريات بالتنويم المغناطيسي وعلاج الهستيريا - عن طريق استحضار مواضيع مكتوبة وإطلاقها (تحريرها) - وضع بعض الافتراضات التي تشكلت أساساً لتطوير النموذج الطبوغرافي (الشكلي):

في الحياة النفسية، هناك مجموعة واسعة من العمليات النفسية المتواجدة في «اللاوعي»، وهو حقل جديد ومختلف عن الوعي، وتحكمه قوانين مختلفة تماماً.

الأساس الرئيسي للأمراض النفسية مستمد من الصراعات والقوى الفاعلة في اللاوعي، وخاصة القوى الغريزية التي تقف وراء الرغبات والهوامات الخيالية (الفانتازيا).

من هنا يمكن فهم الأحداث النفسية، مثل السلوك العاطفي والأفكار أو الظواهر في الأمراض النفسية، والتي قد تبدو غير قابلة للتفسير من قِبَل قوانين الحتمية النفسية والدوافع النفسية الداخلية، والتي غالباً ما تعمل من اللاوعي كعوامل مسببة وتعطي تفسيرات سببية.

واحدة من أفكار فرويد الثورية كانت افتراضه تواجد الغريزة الجنسية منذ الطفولة المبكرة؛ فبحسب وجهة نظره فإنَّ الغريزة الجنسية بمفهومها الواسع تولد مع الطفل مثل باقي الغرائز، وتتطور عبر المراحل التطورية المختلفة (الفمية، الشرجية، القضيبية، الكمون، المراهقة) بحيث تكون مرتبطة بإحدى مناطق الاثارة في الجسم (erogenous zone) (مصالحة، 1998). في سنوات العشرين من القرن الماضي أضاف فرويد نموذجاً جديداً والذي حاول من خلاله شرح بنائية شخصية الفرد والذي أطلق عليه اسم النموذج البنائي (structural model). بحسب هذا النموذج قسّم فرويد شخصية الفرد إلى ثلاث بنائيات أساسية: البناء الأول والذي أسماه الـ «هو» (Id) وهو بناء اللاوعي والذي يحتوي على الطاقة الغريزية المتواجدة فيه بشكل فوضوي وتوسعى دائماً إلى الإشباع. البناء الثاني هو «الأنا الأعلى» (superego) وهو البناء المتكوّن من القوانين والممنوعان الأخلاقية والتي تتصادم مع غرائز «الهو». بين هذين البنائين يتواجد البناء الوظيفي والذي يقوم بدور الموازنة والحفاظ على البقاء وهو «الأنا» (ego)، وهذا البناء عملياً هو الوسيط بين الأنا الأعلى والهو، فيقوم بمحاولة حل الصراعات بينهما من خلال محاولة دفع الفرد إلى التعامل مع الواقع (Mitchel and Black, 2016).

بحسب فرويد، تؤدي التصادمات بين هذه البنائيات إلى صراعات لا واعية والتي بدورها قد تسبب أعراض القلق والاضطرابات النفسية الأخرى، وهنا يقوم «الأنا» بدورها في محاولة حل

هذه الصراعات عن طريق تفعيل وسائل الدفاع النفسية (كالكبت، الإنكار، التقمُّص وغيرها...) (مصالحة، 1998). قمة هذه الصراعات تتكوّن في المرحلة القضيبية وهي «عقدة أوديب» (Oedipus complex)، ففي المرحلة الأوديبية كما أسماها فرويد يظهر الصراع المركزي نتيجة توجيه الطفل لغرائزه الجنسية والعدوانية تجاه الوالدين (بشكل عام توجه الغرائز الجنسية نحو الولد من الجنس المغاير، وتوجه غرائز العدوان للوالد من نفس الجنس). لذلك، فإنّ الحلّ السليم لهذه الصراعات يكمن في تخلي الطفل عن توجيه هذه الغرائز إلى الوالدين وتقمص دور صفات الوالد من نفس الجنس، لذا فإنّ غياب الحلّ السليم لهذه الصراعات يؤدي إلى ظهور اضطرابات شديدة في الشخصية (Greenberg and Mitchel, 1983).

### نظرية الغرائز

وفقا لفرويد، فإنّ الغريزة (Instinct) هي نقطة التقاء بين الأساس البيولوجي والتعبيرات النفسية. والدافع (Drive) هو التمثيل النفسي للغريزة. وصف فرويد في البداية نظامين من الغرائز: واحد يحتوي على غرائز «الأنا» (Instincts of Self Preservation)، أي الغرائز النفسية المسؤولة عن الوجود المادي للشخص مثل الجوع والعطش، والمجموعة الثانية هي غرائز الجنس.

عرّف فرويد لاحقا الغريزتين الأساسيتين في الحياة النفسية بأنّها عبارة عن الليبدو (Li-bido) والعدوان (Aggression). فالليبدو وفق فرويد لا يمثّل فقط الغرائز الجنسية البحتة، وإنما أيضا اللذة والحب.

يذكر فرويد أنّ لكل غريزة أربع خصائص: أولاً، المصدر وهو الأساس البيولوجي المنتج للتحفيز الغرائزي. ثانياً، الهدف وهو الحصول على المتعة وخفض التوتر. ثالثاً، الطاقة، وهي التي تعبّر عن مدى قوة الغريزة، وتعمل وفقاً لقوانين النموذج الأوكونومي (حفظ الطاقة). وأخيراً الموضوع، وهو الشخص أو الكائن أو الشيء الذي يوجه إليه الدافع الغريزي، ومن خلاله يستطيع أن يصل إلى الإشباع والمتعة، وهذا الأخير هو الأكثر مرونة وقدرة على التغيير، ومن هنا تنبع أهميته الكبيرة في تطور الغريزة (Freud, 1905).

الافتراض الأساسي هو أنّ نظامي الغرائز، الليبدو والعدوان يتواجدان في الإنسان منذ الولادة، وهما الأساس والمصدر لكلّ الطاقة النفسيّة. فمن لحظة الولادة، تتطور الغرائز مع تطور الفرد، وبترافق مع ذلك العديد من الاصطدامات والنزاعات حتى تصل إلى حالة من الاندماج والنضج. فخلال النمو، ترتبط الغرائز وفق نظام ثابت لمناطق جسمية وعضوية مختلفة، والتي من خلالها يتلقى الفرد الإشباع الذاتي. إنّ عملية تداخل الغرائز مع الاحتياجات

النفسية تؤدي إلى ابتعاد الغريزة عن سيرورتها الطبيعية (كما تظهر عند الكائنات الحية الأخرى) ومن ثمَّ دخولها إلى عالم الإنسان النفسي والخيالي واللغوي. ومن هنا قد تتغير اتجاهاتها ومواضيعها ومصادرها (كما يحدث في الانحرافات الجنسية أو ظاهرة الفيتيشية (Fetishism) (Baranger, 1975 ; Freud, 1905)

### جوانب مفهوم «الموضوع» (object) في نظرية فرويد

في البداية ظهر استعمال فرويد لمفهوم الموضوع مبسطا وواضحا في كتابه «ثلاث مباحث في نظرية الجنس» (Freud, 1905)، حين عرّف الموضوع «بالشخص الذي توجه إليه الغرائز الجنسية» وسمّى النشاط الجنسي الموجه إلى الشخص بالهدف (Aim). لاحقا، أبدى فرويد تحويرا حول كلا المفهومين (Kosciejew, 2013). إنَّ مراجعة كتابات فرويد تبين أنَّ هناك استخداما واسعا لمفهوم «الموضوع» بأشكال مختلفة. فالمفهوم يتطور ويأخذ معاني جديدة في جميع مناحي النظرية. ويمكن تلخيص فروق المعاني المختلفة بالنسبة للمفهوم في التصنيفات التالية:

- 1- الموضوع في سياق الدافع الغريزي: يُظهر فرويد (Freud, 1905) الموضوع كهدف للدافع الغريزي. من المهم أن نذكر هنا أيضا موضوعات الدوافع الغريزية لأننا أو دوافع البقاء مثل الحاجات البيولوجية، وكذلك موضوعات الدوافع الجنسية.
  - 2- الموضوع فيما يتعلق بالنرجسية: يعطي فرويد (Freud, 1914) للمفهوم معنى أكثر شمولية واتساعا بحيث يرتبط بال (الأنا أو الذات)، وبالتالي تصبح الذات أيضا هدفا للدوافع الغريزية.
  - 3- الموضوع وعلاقته بالتقمص: هنا عرض فرويد (Freud, 1917) الموضوع على أنه استمرارية للتواجد داخل الذات حتى لو أنه لم يتواجد كموضوع خارجي حقيقي.
  4. الموضوع الداخلي أو الموضوع المتعلق بالبنية الداخلية: تطور هنا المفهوم بشكل ملاحظ وفي نفس المصدر بحيث أصبح جزءا من البنية النفسية الداخلية للفرد.
- إنَّ تحليل نصوص فرويد تشير إلى أنَّ أيَّ منظومة علاقة بين الذات والموضوع (ما يسمى بـ العلاقات بالموضوع)، تنطوي على مستويين: -المستوى الأول، الذات والموضوع يتشاركان في هدف معيّن (تلبية حاجة). في المستوى الثاني، فإنَّ هذه التشاركية تؤدي بالموضوع لأن يتحول إلى (بنية وظيفية). لذلك فإنَّ الفئة الأولى المذكورة أعلاه تنتمي إلى المستوى الأول، وكلّما تطور المفهوم أكثر أصبحت البنية الوظيفية للموضوع أكثر وضوحا. (Baranger, 1975).

على مستوى الدوافع الغريزية، فإنَّ الموضوع يوفر حاجة معيَّنة للذات من خلال نشاط معين، فيتم حفظ وتسجيل التجربة من خلال تمثيلات في العالم الداخلي للذات. وفي مرحلة لاحقة، عندما يظهر الدافع الجنسي، تظهر الرغبة في الاكتفاء في ظل غياب الموضوع الفعلي، وهذا يعني ارتباط الرغبة مباشرة مع التمثيلات الداخلية للموضوع. فهنا يتم الانتقال من المستوى الأول من العلاقة مع الموضوع إلى مستوى أعمق وأكثر تداخلا.

في بعض الأحيان، بعد فقدان المواضيع الخارجية، الأنا يوجَّه الكاتكس (الطاقة النفسية) نحو الداخل باتجاه الذات (self)، وهنا تصبح الذات كموضوع للدوافع الغريزية ويتم بناء تمثيلات للعلاقات بالموضوع داخل العالم الداخلي للفرد (على سبيل المثال، عند الشخص النرجسي يظهر إفراط في حب الذات نتيجة انسحاب الدوافع الغريزية المتدخلة في مواضيع أخرى وتركيزها في الذات كموضوع جديد) (Freud, 1914).

وتنتمي الفنتان الأخيرتان (الثالثة والرابعة) إلى المستوى الثاني من الوظائف البنوية. ففي سياق الموضوع وعلاقته بالتقمص، يمكننا القول أننا إزاء مرحلة انتقالية بين نظام علاقات بالموضوع وبين نظام علاقات متداخل، حيث يبدأ نظام الاكتفاء بالعلاقة مع الموضوع ليصبح نظام للتقمص مع الموضوع بحيث يتم تدخيله في هذه المرحلة كجزء من البنية النفسية (على سبيل المثال، عملية التقمص مع الوالد من نفس الجنس مع نهاية عقدة أوديب: النظام يبدأ في الرغبة في الموضوع من أجل تلبية الاحتياجات للغرائز ولكن النظام يتطور بتدخيل الموضوع من خلال التقمص، «أريد أن أكون مثله».) وأخيراً، في الفئة الرابعة، يصبح الموضوع جزءاً من البنية النفسية الداخلية من خلال عمليات التدويت، ويتم استيعاب الموضوع ليصبح ضمن البنية النفسية. وهنا يصبح النظام متداخلاً بالكامل، وبالتالي يمكن من أن تحدث العمليات بغض النظر عن الموضوعات الفعلية (مثل الموضوعات المثالية والجيدة المدوتة والتي تشكل جزءاً من بنية الأنا والقوى النفسية أو تمثيلات الآباء المرتبطة بالتعلق الاجتماعي وغيرها). هنا يكتمل نظام تدويت المواضيع لتصبح بنوية داخل شخصية الفرد (Baranger, 1975).

### مفهوم الموضوع في نظرية ميلاني كلاين وتيار العلاقات بالموضوع

كانت ميلاني كلاين من مؤسسي المدرسة البريطانية للتحليل النفسي، وتعارضت أفكارها مع بعض أفكار فرويد. ركزت ميلاني كلاين على الأشهر الأولى من حياة الطفل وأدخلت مفهوم الموضوع الجزئي (partial object) ومفهوم الهوامات اللاشعورية (unconscious phantasy). بحسب كلاين، فإنَّ الطفل في البداية يقوم باستدخال واستيعاب موضوعات جزئية وليس أشخاصاً (مثلاً أجزاء من جسم الأم كالثدي). إنَّ استدخال الطفل لهذه المواضيع

الجزئية يكون متأثراً بالدفاعات النفسية كالانشطار (splitting) والإسقاط (projection) والاستدخال (Introjections)، ويكون مصبوغاً بالطاقة الغريزية (Mitchel & Black, 2016). هكذا تصبح المواضيع في عالم الطفل العقلي الأولي داخلية وخيالية. ففي هذه المرحلة والتي أطلقت عليها كلاين «الموقف الفصامي الاضطهادي (البرانويدي)» (paranoid-schizoid position) يكون كل من الذات والموضوع منقسماً إلى جزأين: الموضوع المثالي والموضع السيئ، والذات المثالية والذات السيئة. يستمر هذا الوضع حسب كلاين حتى وصول الطفل إلى المرحلة التي أسمتها «الموقف الكآبي» (depressive position) في المنتصف الثاني من السنة الأولى لحياة الطفل، حيث يتم توحيد الذات والموضوع فيكتملان (Kosci- (ejew, 2013).

محلّون نفسيون آخرون من التيار البريطاني والذين عملوا مع كلاين، قاموا بتوسيع أفكارها وتطويرها؛ ممّا ساهم في ظهور ما يسمى بنظريات العلاقات بالموضوع (object relations theories). من أهم هؤلاء كان فيربرن (Fairbairn) والذي وضع الأسس لهذه النظريات.

لقد ناقض فيربرن إحدى الفرضيات الأساسية في نظرية فرويد والتي ترى أنّ الدافع الأساسي في حياة الفرد هو الوصول إلى اللذة. فبحسب فيربرن فإنّ الطاقة النفسية (الليبيدو) لا تبحث عن تحقيق اللذة بل تبحث عن الموضوع، والذي لا يعتبر وسيطاً للوصول إلى اللذة فقط وإنما هو الهدف الأساسي لبناء علاقة اجتماعية (Kosciejew, 2013).

رغم تأثر فيربرن بنظرية كلاين وبالأخص بأفكارها حول المواضيع الداخلية والتمثلات الداخلية للعلاقات الاجتماعية والمنعكسات الأولية، إلاّ أنّه ركّز على العلاقات الاجتماعية الحقيقية بين الطفل وموضوعه الأولية؛ فينتفق فيربرن مع كلاين حول المواضيع الداخلية والهوامات وذلك في حالة عدم وجود والدية كافية. ففي المراحل الأولى من الحياة قد يلجأ الطفل إلى بناء هذه المواضيع والهوامات الخيالية معوضاً بذلك ما ينقص في العلاقات الحقيقية المتبادلة مع الأم. ولكن في حالة وجود والدية سليمة وكافية بذوّت الطفل نماذج هذه العلاقات كما هي والتي بدورها تشكّل أساساً للعلاقات الاجتماعية المستقبلية. أفكار فيربرن هذه أثرت على محلّلين نفسيين آخرين من نفس المدرسة أمثال وينيكوت (Winnicott) وبولبي (Bowlby) والذين طوّروا فيما بعد نظريات خاصة بهم (Mitchel & Black, 2016).

## نظريّة وينيكوت

ركّز وينيكوت في نظريته على جوانب محددة من التطور الإنساني بدلاً من تقديم نظرة

ثابتة للتجربة الإنسانية وتطور الشخصية. ومع ذلك، فإن مساهمته في فهم تطور الذات (The emergence of the self) شكّلت في الواقع أساساً لنظريات التطور الكلاسيكية المختلفة (كنظرية هينز كوهت، 1972). تتمحور أفكار وينيكوت حول وصف الصراع المستمر للذات من أجل وجود «متفرد» من خلال التواصل الحميمي مع الآخرين. وتكمن المفارقة في أنّ الطموح والتطلع إلى الانفصال (separation) يعكس في الواقع الرغبة والحاجة إلى العلاقة الحميمة والقرب والاتحاد الشخصي مع مَنْ يجب الانفصال عنه. لذلك، فإنّ التطور السليم للذات ينتهي إلى قدرة الفرد في الحفاظ على جوهرها الشخصي دون أن يخالجه شعور بالعزلة. ذلك يعني التطلع إلى مستوى تكون فيه الذات مستقلة والتي تمكّن من الحميمية والتقارب الناضج. ولذلك فإنّ التطور غير السليم للذات سيؤدي إلى التعلق المرضي وعدم الانفصال عن الآخرين أو فقدان التواصل مع البيئة. وقد ناقش وينيكوت الظروف التي تسمح بالتطور السليم للذات، وأعطى أهمية بالغة للأم في خلق الظروف الضرورية لذلك، فهي التي توفر الخبرات والتجارب الكفيلة بمساعدة تطور الطفل. يتطور الطفل وينمو بشكل مستقل عن الأم لكن يبقى دورها متمثلاً في توفير الظروف التي تسمح بالتطور السليم للذات. ولكن من المهم أن نذكر أنها لا تنتج ولا تحتاج إلى محاولة إنتاج مسار التطور الخاص به. فالتطور عملية طبيعية في الحياة يجب احترامها وعدم محاولة إنتاجها (Greenberg and Mitchel, 1983).

في البداية لا يكون الطفل موجوداً ككيان مستقل، بل كيان لأم وطفل معا (nursing couple)، ومن هذا الكيان سوف ينمو الطفل لاحقاً. وصف وينيكوت الرضيع كالغريق في تجارب غير متكاملة (unintegrated) ورغبات وحاجات مختلفة تظهر بشكل تلقائي، وعند تلبيتها تذوي وتختفي. إنّ استعمال وينيكوت لمفهوم عدم التكامل في وصف حالة «التواجد» عند الرضيع يتميز عن طرح ميلاني كلاين التي وصفت هذه الخبرات بأنها مفككة ومجزأة في أنّ وينيكوت يعتبرها خبرات دياكتيكية بكونها منفصلة ولكنها غير مجزأة و مشتتة دون أن تكون مخيفة. وينيكوت يرى خبرات الطفل الأولى خلال أشهر حياته الأولى على أنّها مصيرية لنمو شخصيته المستقلة. إنّ البيئة الداعمة التي توفرها الأم (بغض النظر عن الدوافع الغريزية) هي التي سوف تحدد النتيجة، لذلك فإنّ وينيكوت يعلق على الأمر قائلاً: إنّهُ في حالات عدم الملائمة بين حاجات الطفل وعناية الأم يبدأ الطفل بالتخلي عن ذاته الحقيقية (true self) ويبدأ بتكوين ذاتا زائفة (false self)، وكلّما كانت الفجوة بين الذاتين كبيرة وعميقة كانت الطريق نحو الاضطرابات النفسية محتومة (Black & Mitchel, 2016).

يبدأ وينيكوت نظريته بالتركيز على ما يسمى «وحدة أم طفل»، فالقول بحكمة «ليس



هناك طفل بلا أم»، تعني الوحدة التي تعتبر القاعدة الرئيسية لفهم التطور. «وحدة أم طفل» تتكون منذ الولادة والطفل الذي يولد دون اكتمال نفسي أو كيان، يكون في الأشهر الأولى من حياته جزءاً من حياة الأم. وتكون هناك منذ البداية ملائمة بين الطفل وأمه، فالطفل بحاجة لأمه وهي بدورها بحاجة إليه، وهذا التلاؤم يعتبر شرطاً أساسياً لحدوث التطور اللاحق. الأم تقوم بوظائفها الأساسية كأم (الإطعام، العناية، الحماية والدعم) أي تشكل ما يسميه وينيكوت بيئة حاضنة (holding environment) ومسهلة للتطور؛ مما يوفر للطفل مشاعر الأمان والثقة (مصالحة، 1997).

فمن حالة عدم التمايز بعد الولادة، تبدأ في وقت مبكر جداً عمليات التكامل والشخصنة ((personalization)) والتعرف على الواقع. فحري بالأم هنا أن تتعامل مع حب الطفل غير المحسوب وغير المراعي لها (ruthless)، وهو حب يتضمن قدراً كبيراً من العدوان المتعب، والذي يسعى إلى تدمير الموضوع. هنا، تتشابه مفاهيم وينيكوت مع ميلاني كلاين عندما وصفت العمليات في مرحلة الفصام البرانويدي والتي تتحكم فيها غرائز ومخاوف بدائية قديمة ومدمرة، فعالم الرضيع يتميز بعمليات الفصل (split) التذويب والإسقاط. ولكن وينيكوت ركّز بشكل أكبر من ميلاني كلاين على دور الأم الحاضنة للطفل والتي توحد عالمه وتحضنه في بعد زمني ومكاني. (Greenberg and Mitchel, 1983)

تتطلب الأمومة الجيدة (good enough mothering) في بداية حياة الطفل تكريس الأم نفسها للرعاية من حيث كونها الأم. فبعد الولادة، تكون الأم مستعدة لانشغال دائم بالطفل (primary maternal preoccupation). هذا التفاني هو من طبيعتها البيولوجية وفي تجربتها وخيالها (فانتازيا) مذ بداية العلاقة مع الطفل خلال الحمل. فهي توفر بيئة حاضنة تربطه بالعالم المحيط. وكما يقول وينيكوت أنه ليست هناك حاجة لتعليم الأم كيفية التصرف في رعاية الطفل، «إذا كانت العلاقة بين الطفل والأم قد بدأت وتطورت، فمن هنا وبشكل طبيعي تستطيع الأم التعلم عن طفلها من خلال طفلها تماماً كما يتعلم الطفل عن الأم من والدته» (وينيكوت، 1958).

### استخدام الموضوع الأساسي (الأولي) في عملية التطور

في الأشهر الأولى، تكون الأم كموضوع أساسي بمثابة «صانعة السحر» والذي يساعد الطفل أن يعيش في وهم من الهيمنة والسيطرة على محيطه (omnipotence)، وهو ما يخلق في الطفل في خياله عن العالم من حوله. فلدى الطفل يكون القابلية والتطلع إلى الموضوع (object seeking) وهو ليس بالدافع الذي يسعى لموضوع محدد لتحقيقه (كما يرى فرويد)، ولا هو

موجود في خيال الموضوع (كما ترى كلاين)، ولكن تطلع (توقع) داخلي إلى الاكتفاء. فالطفل يشعر بالحاجة، والأم تعمل على توفيرها له؛ ممّا يمكّن الطفل من أن يصيغ عالمه. يجوع الطفل فيبكي ثم يحصل على الثدي، وهكذا يخلق الطفل موضوعه من خلال البكاء ومساعدة الأم، فهي تساعد على إنتاج الأفكار وإثرائها من خلال معرفة احتياجاته وتحقيقها له بشكل فوري. ولاحقاً عندما يجوع ستكون شريكة له في تشكيل أو هامه. فالطفل يعيش في مرحلة الوهم ((moment of illusion بحيث يتمثل فيها كل من الموضوع المقدم له من خلال الأم وأوامه. فهو يظن نفسه بالقادر على كل شيء أو الساحر الذي يخلق الواقع، وهي خبرة مهمة للتطور السليم. هذه المرحلة تسمى أيضاً بـ «توهم القدرة الخارقة». فظاهرة تزامن التوهم والموضوع هي أساس التواصل مع المحيط والسيطرة على الواقع الخارجي. فمن الضروري أن تكون الأم منتبهة إلى احتياجات الطفل من أجل توفير بيئة مثالية له (perfect environment). فتوفير بيئة مثالية هو أمر متعلق بالأم، ولذلك في بعض الأوقات لا تسمح المعايير والمواقف الاجتماعية بأن يكون الأمر مثالياً بشكل مطلق. حيث يقول وينيكوت أنّ المشكلة الحقيقية تكمن في هذه العلاقة الحميمة، المادية والروحية، المتشكلة بين الأم والطفل والتي تترافق مع مشاعر كثيفة من المتعة، حتى تقع العديد من الأمهات بسهولة ضحية التحذيرات التي تشير إلى أنّ الأشخاص يجب أن لا يغمسوا في مثل هذه المشاعر» (Winnicott, 1945, 1953).

في بداية حياته، يعبر الطفل عن حاجاته بطريقة متقطعة وغير منظمة، وتعكس له الأم كمرأة ما يساعده على تنظيم خبراته واحتياجاته بصورة مفهومة. تظهر صرخات الطفل في المرأة (الأم) التي تستوعب كئدي منظم ومُرضٍ. فتساعد أفعال الأم طفلها على الانتباه إلى أحاسيسه الجسدية وتنظيم احتياجاته وخبراته الخاصة (عن ذاته). فالمشاعر الجسمية (الجسدية) هي أساس الشعور بالذات، وحينما لا يسمح للطفل بخبرة متكاملة ومنظمة لأحاسيسه؛ قد يؤدي به ذلك إلى انفصال التطور النفسي عن الجسم وانعدام الثقة بالأحاسيس الجسمية والتي هي أساس للإحساس بالذات (Winnicott, 1945, 1971, 1958).

إنّ تجارب الطفل في بيئة حاضنة تحول لديه مشاعر وخبرات العدوان والغضب من كونها تجارب هادمة (disruptive experience) إلى تجارب «إعادة بناء» ((recon-structive experience، والتي تجدد التناغم والوحدة الأولية. لذلك فإنّ تراكم هذه الخبرات مع شخصيات راعية بالإضافة إلى الأم تعمل على تشكيل القدرة على الاحتواء والاحتفاظ والاكتفاء بذاته مع مرور الوقت، وتنمي قدرة الفرد على الانتظار وتأجيل الإشباع والشعور بالأمل. فهنا تتحقق «القدرة على التواجد وحيداً» (the capacity to be alone) بمعنى «التواجد وحيداً في ظل وجود موضوع حاضن داخلي أو خارجي. فالمطلوب من الأم أن تكون

حاضرة وأن تسمح للطفل أن يختبر أوضاع انعدام الحاجة وانعدام التكاملية والنشاط أي التواجد مع نفسه (being)، وهو إحساس ضروري لتطور الذات (self) بشكل متزن. وهذه تكون حالة مؤقتة انتقالية خالية من وجود الصراعات أو الغرائز، وهي حالة من التيقظ والانفتاح وعدم وجود تنظيم مستقر. فنتميز المرحلة الأولى بالتماثل المطلق بين الواقع الداخلي والخارجي. ولاحقا يتطلب الأمر معرفة الواقع والاعتراف به وتقبله (Winnicott, 1958).

### الاعتراف بالواقع على أنه خارج سيطرة الطفل (معرفة حدود قوّته).

إنّ وجود الأم المستمر في البداية لتحقيق «بيئة مثالية» لن يكون مطلوباً في وقت لاحق. فعندما يتم تكوين «وهم القدرة» فلن يكون هناك حاجة لمواصلة الحفاظ على الظروف المحيطة الأولى. ففي المرحلة التالية، من المهم للطفل أن يتعرف على العالم الحقيقي كخارج سيطرته. حيث تعمل «إخفاقات الأم» (الإخفاقات المثلى والمتدرجة) في التعامل المثالي مع احتياجات الطفل على الاعتراف بحدود قوّته. فالأمّ «تتعافى» من الانشغال المبالغ فيه بالطفل، وتبدأ بإظهار الاهتمام بعالمها الخاص، فيحاول الطفل أن يتعامل مع العالم الحقيقي وتبدأ بداية الانفصال؛ بحيث يتمثل دور الأم في هذه المرحلة في تدريب وتحسين وظائف «الأنا» لدى لطفل.

إنّ فشل الأم وإخفاقتها (في تلبية حاجاته بشكل مثالي) يجبره على تشغيل وظائف مستقلة، مثل: الانتظار، التراجع، أن يلعب لوحده، حل الصعوبات وحده، إلخ. إذا هو فشل تدريجي للأمم في التعامل مع احتياجات الطفل (graduated failure of adaptation) ويشتمل على صنفين: الأول في حالة استثارة الطفل عندما لا تلبى احتياجاته بشكل تام. الثاني في حالات تواجد الطفل مع ذاته (being) عندما تتدخل الأم أو البيئة بشكل معيق (مصالحة، 1997).

يختبر الطفل هذا الفشل في التعامل مع احتياجاته كخطر وجودي على ذاته (self)، وبالتالي يمكن أن يتشكّل الفصل (split) بين الذات الحقيقية (true self) والذات الزائفة (false self). المتطلبات الخارجية من الطفل والتي لا تتناسب مع تلبية احتياجاته يمكن أن تؤدي إلى تشكيل الذات الزائفة غير المرتبطة بالخبرة الحقيقية لحاجاته، بل بمتطلبات محيطه، أي نشوء شعور زائف للذات غير حقيقي يهدف إلى إرضاء الآخرين. فعندما لا يكون التماثل حاضراً بين استجابات الأم واحتياجات الطفل، وخصوصاً عندما تفرض الأم نفسها ورغباتها على الطفل ينشأ لديه شعور بالإحباط لا يمكن له أن يحتويه دون المساس بشعور «التماسك الشامل» للذات (self). ولذلك، فإنّ هذه التجارب تخلق ذاتاً زائفة تلبى مطالب الأم. في الواقع، فإنّ الذات الزائفة صُمّمت لحماية الذات الحقيقية من التعرض والتأثر بالمطالب البيئية، فالذات

الحقيقية هي مصدر للتعبير العفوي عن الحاجات؛ أما حالة الذات المزيفة (وهم وجود الذات) فهي التي شكّلتها توقعات ومطالب البيئة بحيث يصبح فيها الطّفّل صورة ماثلة للآم (Win-) (nicot, 1990).

### الموضوعات والظواهر الانتقالية:

إنّ الفشل التكيفي يقود الطفل تدريجياً إلى التعامل مع العالم الحقيقي. فالانتقال من حالة الوهم إلى التعامل الواقعي مع المحيط يحدث بشكل تدريجي. وخلال الانتقال من الوهم إلى الواقع تبرز الظواهر الانتقالية (transitional phenomena)، وكجزء منها الموضوع الانتقالي. فسد الفجوة بين العالم الذاتي والعالم الموضوعي يحتاج إلى عالم ثالث والذي يتم خلقه بفضل الأم والطفل. خلال ظاهرة الانتقال، تتشكّل خبرة مع موضوع واقعي من حيث القدرة والذاتية. حيث تسمح الأم في التعامل الذاتي مع الموضوعات دون فحص ماهيتها، ومن خلال ذلك تتيح وجود مجال إمكانيّ (مجال ممكّن للتطور) الضروري لخروج الطفل بشكل تدريجي من التصور الذاتي إلى الموضوعي. فيبدأ الطفل خلال الانتقال التدريجي من خبراته الخاصة كمركز للعالم إلى مشاعر ذاتية تأخذ بعين الاعتبار وجود الآخرين. ويمكن القول أنّ الوصول إلى قبول الواقع بشكل مطلق لن يكون مكتملاً، فهناك توتر مستمر ودائم حتى لدى البالغين بين الواقع الداخلي والخارجي. على أنّ خبرة المجال البيئي (بين ما هو داخلي وخارجي) تعمل على تحرير هذا التوتر على شكل نشاطات مثل: اللعب، الفن، الإنتاج والدين. فكما يلاحظ فإنّ الحاجة للتعامل المثالي من قِبَل الأم تنخفض تدريجياً اعتماداً على قدرة الطفل في تحمل الإحباطات ومواجهة فشلها في التعامل مع حاجاته. لذلك فإنّ الفشل الوالدي ينقل الطفل من حالات الوهم إلى حالات نقيضة للوهم (واقعية). «فالوهم هو تواجد واقع خارجي يتطابق تماماً مع قدرة الطفل على إنتاجه». فمثلاً يتم خلق الثدي من قِبَل الطفل بسبب حاجة الطفل إلى الطعام وقدرته على الحب، فالثدي هنا ظاهرة ذاتية لدى الطفل. بيد أنّ نقض الوهم التدريجي يصاحب ظاهرة الانتقال والتي يلعب فيها الطفل في عالم ثالث غير موجود في الواقع بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي (كتعلقه بقطعة قماش أو مصاصة «هذا في مكان أُمي»، والتي تساعده على أن يبقى هادئاً رغم غياب الأم). فعملية التخلي عن الوهم ترتبط بالفطام (weaning) والإحباطات اللاحقة (مصالحة، 1997).

لتطور الطفل بشكل سليم يلزم وجود حالة أولية من الوهم المشبع وخروج تدريجي لنقيضه (الواقعي) بمساعدة ودعم الظواهر والمواضيع الانتقالية. إنّ حالات التخلي عن الوهم تجعل الطفل يشعر بالاستقلالية عن الموضوع وعدم الحاجة للسيطرة عليه، وكلّما تخلّى الطفل

عن أوهامه الداخلية اقترب من الاعتراف بالواقع الخارجي. هذا وفقدان الوهم يسبب غضبا لدى الطفل بحيث يقضي (يدمر) في خياله على الموضوع على الرغم من أنه لا يزال يستخدمه. فمن المهم في هذه الحالة أن يستمر الموضوع في التواجد حتى عندما يحاول الطفل «تدميره»، من أجل السماح له بدخول خبرة الانفصال عن الموضوع واحتواء مشاعره السلبية (Win-nicot, 1969).

في الواقع، يوافق وينيكوت على مفهوم كلاين في سياق حديثها عن الوظيفة الاكتئابية لكنه يفضل أن يطلق عليها مرحلة الاعتراف والقبول (concern). فيقول أنه بمجرد أن يتمكن الطفل من فهم الأم على أنها موضوع واحد يشعر بالحب والكراهية لها في نفس الوقت، ويتمكن من توحيد كلا الأيمن (الأم الجيدة والأم السيئة) واللتين كانتا منفصلتين في داخله في مرحلة سابقة. هنا يبرز شعور بالذنب نتيجة لتناقض مشاعره تجاه نفس الموضوع. كما وكتب وينيكوت «وهذا الشعور بالذنب هو الشعور الحقيقي الوحيد وماعدا ذلك ليس إلا تشويها للذات» (winnicot, 1971). عند التقاء نبضات الحب والكراهية، بالإضافة إلى الشعور بالذنب الناتج في «مرحلة الاعتراف والقبول»، يرى وينيكوت أن ذلك بداية نشاط صحي في العلاقات الإنسانية، ومصدر قوة للمساهمة الاجتماعية والثقافية. فأكثر ما يعزوه فرويد إلى العقدة الأوديبية نرى وينيكوت يعزوه إلى المعالجة الناجحة في مرحلة الاعتراف والقبول (لا يشير وينيكوت إلى مرحلة عمرية معينة، على الرغم من أن كلاين تتحدث عن المرحلة الاكتئابية ابتداء من الشهر الثالث). فهو يتحدث عن شعور الأمومة الجيدة (good enough mothering) كأساس لمرحلة الاعتراف والقبول، وحتى في هذه المرحلة يشير إلى أهمية هذه الأمور مقارنة بمشاكل المثلث العائلي (مشاكل أوديبية) (Baranger, 1975).

وينيكوت يقول أن هناك حاجة لعناية والدية جيدة من أجل الصحة النفسية، حيث يصف الذهان بأنه «عجز في المحيط» «البيئة». وبالتالي فإن النكوص (regression) ليس رجوعا إلى التثبيت الليبيدي بل إلى الوضع الذي فشلت فيه البيئة المحيطة برعاية الطفل، ونقطة توقف التطور. فالنكوص هو البحث عن الخبرة الصعبة والمفقودة (Winnicot, 1971).

بحسب وينيكوت فإن العلاج النفسي يمكن من تلبية الحاجات التي لم تكن متاحة في الطفولة المبكرة من خلال الأم. فهو يعوّض عن الفشل الوالدي في التعامل مع حاجات الطفل ويوفر بيئة والدية جيدة. فالمعالج مسؤول عن حضانة المنتفع المريض المراجع (client) بطريقة ثابتة ومسؤولة وطويلة الأمد، حتى يتسنى لذات المنتفع استمرارية النمو من نقطة التوقف. فالعلاج هو لعبة متبادلة بين المعالج والمريض، أي في المجال الإيماني بينهما. فمن المهم في العلاج الوينيكوتياني إعادة إنتاج الوهم (وهنا ما يخالف الاتجاه الفرويدي والذي يرى

أهمية نحو تخليص المريض من الأوهام)، وهذا ما أثار تحفظ العديد من النقاد الذين رأوا في ذلك تشجيعاً نحو النكوص واهتماماً مبالغاً فيه في مسائل ورغبات طفولية. لكن وينيكوت يرى أنّ العلاقات المجددة (المعاد تشكيلها) مع شخصية المعالج بمساعدة العلاج النفسي مهمة لتطور المنتفع المريض (winnicot, 1971).

يذكر وينيكوت واصفاً ذلك بأنّها «عملية البحث عن خبرة علاقة مفقودة»، ويمكن الرجوع إلى تفسيره لظاهرة السرقة والكذب القهرية حيث يقول: «عادة ما يحمل الأطفال الصغار نقوداً من محافظ أمهاتهم، وهو سلوك صحي وهو جزء من العلاقة الأولية للطفل مع الآخرين. في أسرة عادية حيث لا يوجد شخص مضطرب يمكن أن نسميه لصاً، نرى العديد من «السرقات»، لكننا لا نسميها كذلك». «فاللص لا يهيمه الغرض الذي يسرق بل يهيمه الشخص، أمه، على الرغم من أنه لا يعرف ذلك». «الطفل السارق هو طفل يبحث عن والدته أو الشخص الذي له الحق في سرقة، والمسموح الأخذ منه». فيسمح لنفسه على أساس أنّ: «والدته له وهو من أوجدها ومن قدرته وحاجته إلى الحب».

عند محاولة دراسة جذور السرقة، يتبين دائماً أنّ لدى اللص حاجة لإعادة علاقته مع العالم على أساس استعادة والدته مجدداً، أمه المتفانية والتي منحته الوهم بأنّ لدى العالم كل ما يرغب فيه» (Winnicott, 1990).

## نقاش

كما ورد هنا، فإنّ مفهوم الموضوع «يلعب» دوراً مركزياً في نظرية التحليل النفسي. فرويد في البداية وضع الموضوع مقابل الغريزة، حيث يكون الموضوع كهدف للإشباع (مصالحة، 1998). ولاحقاً ربط فرويد بموضوع وظيفة هامة في التطور النرجسي للأفراد. وفي هذا المعنى، فإنّه تحدث عن الذات كموضوع لليبيدو (الطاقة النفسية) بعد انسحابها من الموضوعات الخارجية. وأخيراً تحدث فرويد عن الموضوعات كبنية (بنوية)، موضوعات التقمص والتي يستدخلها الفرد وتصبح جزءاً من بنيته الداخلية. في كل هذه التصورات، لا يتواجد الموضوع كحقيقي وموضوعي (بمعنى محايد أو مقابل ذاتي)، وإنّما وجوده كان ذاتياً تماماً بسبب نزعة الأفراد لصيغ الموضوعات بالكاثيكسيس النفسي (أي عكس أجزاء من الذات على الموضوع) من خلال عمليات مستمرة من الإسقاط والاستدخال (1905, 1914 Freud, 1917).

وينيكوت وبما أنّه لا يتعارض مع فرويد لكنّه يخطو خطوات هامة في توسيع مفهوم الموضوع. حيث أنّ الموضوع لا يقتصر على أن يكون فقط هدفاً للغرائز بل جزءاً من تشكيل

وجود الذات الإنسانية. ففي سياق الموضوعات البنوية يتبنّى وينيكوت أفكار فرويد (Ba-ranger, 1975)، ولكنه يطورها بصورة خلاقة عندما يفسر عملية التحول التي يمر فيها الموضوع في طريقه ليكون موضوعا بنويًا. بالإضافة إلى ذلك، يؤكّد وينيكوت على التفاعل بين الموضوع والذات وبين الذات ومحيطها وبين العمليات النفسية الأخرى. ولا يوافق هنا مع توجه فرويد والذي ينحصر فقط في الذات مع إهمال واضح للمحيط البيئي. فالموضوع الذي يدركه الطفل في البداية بصورة ذاتية تماما، يمر في تحولات تقابل التحول في ذات الطفل أيضا والتحويلات في البيئة، ويمكّنه من استخدامه في طريقه للتقرد والتطور. وفي كل مرحلة يتطلّب ذلك وظائف جديدة. وينيكوت أيضا يجدد الكثير في تطرقه إلى وظائف الموضوع الانتقالي الذي يجمع بين الذات والبيئة (Winnicott, 1953, 1971).

وفقا لملائي كلاين (Greenberg and Mitchel, 1983)، يبدأ الطفل بخلق تصور للعالم من خلال إسقاط خبراته مع جسم الأم. ومن خلال الإسقاط والتفاعل ينأى الطفل بنفسه وعالمه عن كل الخبرات السيئة ويحافظ على الجيدة منها. إنّ عملية الفصل (Split) هذه هي أمر حيوي لتطور الطفل في المراحل الأولى من حياته. في المرحلة الأولى والتي أسمتها كلاين الموقف «الفصامي البرانويدي» يشعر الطفل وكأنّه مستهدف من قِبَل الموضوع السيء (الذي يمثّل العدوانية الغريزية وخبرة الإحباط)، ومن أجل تجنبه يحافظ على الموضوع الجيد بصورة منفصلة تماما (في هذه المرحلة يدرك الموضوع بشكل جزئي ومنقسم كموضوع جيد وموضوع سيء، ويدرك الطفل ذاته بمثل هذا التصور أيضا). وبعد بضعة أشهر، وعندما يصل الطفل إلى الموقف الاكتنابي يبدأ بإدراك الموضوع بشكل كامل أو متكامل. وتجدر الإشارة هنا، وفقا لكلاين، إلى أنّ الحفاظ على الموضوع الجيد والمثالي هو أساس لتطوير البنى النفسية الداخلية الهامة، فيمثل هذا الموضوع نوعا من الحماية للطفل. فيربن أضاف أنّ الطفل يذوّت نماذج وتمثيلات لعلاقاته الاجتماعية الأولية والتي تشكّل أساسا لعلاقاته الاجتماعية مستقبلا، ويتفق مع كلاين في أنّه في حالة والديّة غير سليمة قد يلجأ الطفل إلى تطوير «علاقات موضوع» وهميّة ومشوّهة (Kosciejew, 2013).

وينيكوت يأخذ أفكار كلاين خطوة أخرى إلى الأمام فيتناول تعريف الموضوع الانتقالي على أنّه الممثل للأم الجيدة، ومن خلال هذا الموضوع يحاول الطفل المحافظة على أمه في عالمه (داخله).

وينيكوت يُظهر الظواهر الانتقالية ويضعها بين الخيال والواقع، بحيث تبدو على أنّها بداية التحولات المهمة في بناء العمليات الرمزية. هذه الفكرة، تسلط الضوء على الرأي النافذ في مساحة التحليل النفسي، والتي تؤكد على أنّ بناء الرموز مصدره في الأساس نشاط آلية

## الكبت.

الظواهر الانتقالية وفقا لوينيكوت تتميز على أنها نوع معين من عمليات عقلية بشرية فريدة، فعقل الطفل خلال محافظته على الإدراك الواقعي لخصائص الموضوعات يعمل في نفس الوقت على تغييرها بل ويذهب خطوة أبعد من ذلك عندما يتم وضعها في مجال الرمزية واللغة. ونتيجة لهذا الإجراء، تحصل الموضوعات على قيمة وأهمية مضاعفة: فالظواهر الانتقالية تسمح ببناء المفاهيم والرموز، فيصبح الرمز بديلا للموضوع الحقيقي (وهكذا يتلاشى ويصبح مبهما "incomprehensible")، وبهذه الصورة الخاصة يستطيع الفرد أن يواصل الرغبة والتوق (crave) (وهي عملية ناتجة عن وجود عائق للموضوع الحقيقي والذي تم ترميزه بحيث أصبح مبهما وبالتالي فإن الرغبة أو التوق هي نتاج لهذه الفجوة، وهذه الفجوة دائما تخلق الصراعات، نحو الصراع بين الرغبة والتوق للموضوع الحقيقي المبهم ورمزيته). لذا، يمكننا القول أن الفرد يدخل عالم الثقافة بفضل تاريخه الشخصي لكونه مخلوق غرائزي. ومن هذه اللحظة يتصف بكونه كائنا تناقضيا (تعارضيا أو تصارعا) (Winnicott, 1971). منذ الطفولة المبكرة، ونحن على اتصال مع الواقع الموضوعي بشكل مزدوج: من جهة، هناك تواصل مع الواقع لإشباع الغرائز والاحتياجات، ومن جهة أخرى فإن هذا التواصل يحدث من خلال الموضوعات والظواهر الانتقالية.

من خلال الظواهر الانتقالية يلعب عنصر الوهم دورا مهما ويحمل معنى مختلفا عند وينيكوت، فبناء وحدة أم-طفل في الأشهر الأولى بعد أن تم فقدانها مع الولادة يعاد من خلال الرعاية الأمومية المتفانية. وعندئذ يمر الطفل في حالات الهدوء والإشباع والذي يعزز من حالة الوحدة مع الأم، وأيضا في حالات فقدان وعدم الإشباع المرتبطة بظلال تجربة صدمة الولادة (Winnicott, 1945). فهنا وبين هذه التجارب، لا بد من وجود جسر وهمي يخلقه الطفل والذي يمدّه بشعور داخلي بالوحدة والاستمرارية وأيضا بشعور بالوهم أو أمل اللقاء والاتحاد من جديد في الحالات التي يشعر فيها بالفقدان. هذا الشعور يساعده على البقاء مسترخيا (متزنا هادئا) مع غياب الوحدة. لهذا، فإنه على الطفل أن يتعلم أن يشعر بالأمل من دون أن ييأس، فكيف يصل إلى ذلك؟ منذ اللحظة الأولى تلائم الأم نفسها بصورة تامة لاحتياجات الطفل والعناية المتفانية والمستمرة به، وبذلك تكون تزرع فيه اعتقادا بالسيطرة عليها (بعد ملائمة ظهور الحاجة الداخلية وإشباعها بشكل تلقائي من خلال الأم) ومن هنا يطور الطفل مشاعر الهيمنة والسيطرة بأنه يسيطر على الواقع (العالم الخارجي) (Win-nicott, 1965). هذا يستمر إلى أن تبدأ الإحباطات والشعور بالافتراق التدريجي عن الأم. هنا يبدأ الطفل بالاستيقاظ من وهم السيطرة ويحاول أن يلائم نفسه للواقع الجديد. وهنا يأخذ



**الموضوع الانتقالي دُورا مصيريا بحيث يستخدم جسرا ضروريا في هذا الانتقال بين ذاتية مغرقة لواقعية جزئية.** فالموضوع الذي يحتل مكانا كبديل للأم يستخدمه الطفل الآن كوسيلة للتهدئة الذاتية والتخيلات في الأوقات الصعبة، وبذلك يستطيع الطفل أن يتحمل هذه الأوقات الصعبة من الإحباط دون أن يشعر بالانهيار. وفي المقابل، فإن استخدام الموضوع كبديل للأم يحافظ بداخل الطفل على الأمل (في الاتحاد مرّة أخرى) ويبعد عنه مشاعر اليأس (مصالحة، 1997). من خلال الموضوع الانتقالي يبدأ الطفل بتخيل الأم «الدوبي بدل أمي» حتى يتسنى له تدريجيا أن يطور القدرة على الفصل بين ما هو داخلي وما هو خارجي، بين الذاتي والحقيقي. هذا فضلا عن ابتعاده تدريجيا عن أفكار الهيمنة وبداية إجراء تنازلات من أجل الوصول إلى تفكير أكثر موضوعية والتنازل عن مشاعر السلطة المطلقة. فتمثل هذه العمليات تطورا هاما في تفكير ونفس الطفل اللذين يتطوران بدورهما من خلال الموضوع الانتقالي (Winnicott, 1953). وهنا يكمن فرق مهم بين فرويد ووينيكوت، فالأول لا يعطي الموضوعات الحقيقية أي أهمية تقريبا. فقد ركّز على القيمة الرمزية للموضوعات وتمثالتها. فنظرية فرويد تفترض أنّ الموضوعات دائما ما تكون مشبعة بالكاتكسيس (الطاقة النفسية) من خلال عمليات الإسقاط والاستدخال؛ ولذلك فإنّها تكون موضوعات حقيقية ليس لها أية أهمية. وبهذا وبحسب فرويد يمكن النظر للذات على أنّها منعزلة (Mitchel and black, 1975; Baranger, 2016). في المقابل يفترض وينيكوت افتراضا مختلفا في حديثه عن الموضوع الانتقالي، فوفقا له فإنّ أهمية الموضوع الحقيقي والذي يمثل موضوعا انتقاليا (مثل الدوبي) ليست فقط متمثلة في قيمته الرمزية، وإنما أكثر في كينونته وأفعاله، فحقيقة أنّه ليس «الأم» على الرغم من أنه حقيقي، لا تقل أهمية عن حقيقة أنّه يمثل «الأم» (Winnicott, 1958, 1953). في هذا السياق يقول وينيكوت: «عندما يستخدم الطفل الرمزية، فإنّه يصبح بالفعل قادرا على التمييز بين الفانتازيا والحقيقة، وبين الموضوعات الداخلية والخارجية، وبين الخلق والإدراك. لكن مفهوم الموضوع الانتقالي كما نفترض، فإنّه يعطي مكانا لسيرورة خلق القدرة على تقبل الاختلاف والتخيل. ويبدو أنّ هناك فائدة في هذا المفهوم خصوصا في ارتباط رمزيته بالزمن، في رحلة الطفل من ذاتيته المغرقة إلى الموضوعية» (winnicott, 1971). وينيكوت يميّز أيضا بين «العلاقة بالموضوع» (object-relating) وبين «استخدام الموضوع» (Winnicott, 1969) (object-usage). ووفقا له، فإنّ العلاقة بالموضوع تسمح بوجود تغييرات معيّنة في الذات، تغييرات من هذا النوع تشبه مفهوم الكاتكسيس (تعبئة الموضوع بالطاقة النفسية). فيصبح الموضوع ذا أهمية وخصوصا خلال نشاط آليات الإسقاط والتقمص، بحيث يتم استنزاف الذات (subject) بصورة أو بأخرى فيصبح جزءا منها ظاهرا

في الموضوع لكنها وفي نفس الوقت مفعمة بالمشاعر. لذلك فإنَّ «العلاقة بالموضوع» هي خبرة الذات (subject) الممكن وصفها من وجهة نظرها كمعزولة (وينيكوت، 1958). يتوافق هذا الرأي لتصور فرويد في معنى الموضوع، ولكن عندما يتحدث وينيكوت حول «استخدام الموضوع» يتبين لنا إضافاته. ففي استخدام الموضوع يفترض وينيكوت وجود «العلاقة بالموضوع» كأمر مفروغ منه، لكنه يضيف ميزات جديدة تتعلق بطبيعة وسلوك الموضوع ودوره في تطور الفرد. على سبيل المثال، حتى يكون من الممكن استخدام موضوع معين، فإنّه من الضروري أن يكون حقيقياً (لموسا)؛ ممّا يعني شراكة للواقع وليس حزماً من الأوهام (Winnicott, 1969). تشكّل الموضوعات والظواهر الانتقالية أساساً للتطور النفسي السليم للفرد، وفي مجاله يتشكّل التفاعل مع الواقع الخارجي ومع الآخرين. حيث أنّ كل لقاء مع الآخر هو لقاء بين المجالات الانتقالية لكلّ منهما. وهذا المجال هو المساحة التي يحدث فيها اللعب في الطفولة، وفيما بعد أكثر ما يخلق ويبدع الإنسان (Winnicott, 1953, 1969, 1990). إنّ المحرك للوجود الإنساني المترکز في إشباع الحاجات، الغرائز، وحاجات الحب، من الممكن أن يتم تفعيله إذا تواجدت الرغبة والأمل في الاتحاد من جديد مع الموضوع (لكل حاجة أو غريزة مطلوب هدف-موضوع). لذلك فإنّ للفرد القدرة على خلق موضوعات انتقالية تحافظ طيلة الوقت على وهم الإشباع الكامل، بيد أن حدوث خلل ما داخلياً كان أم خارجياً خلال التطور يضرّ بالقدرة على خلق الأوهام والانتقال إلى الواقع، ويفتح الطريق نحو الاضطرابات النفسية (Winnicott, 1971).

## المصادر

- زهران ح. ع. (1987). قاموس علم النفس. إصدار عالم الكتب. مصر.
- عيسوي ع. (1996). قاموس مصطلحات علم النفس الحديث. دار المعرفة الجامعية مصر.
- لابلانج ج.، بونتاليس ج.ب. (1997). معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة: مصطفى حجازي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر لبنان.
- مصالحة، ز. (1997). من الوهم إلى الواقع: عرض لأفكار دونالد وينيكوت حول اللعب والظواهر الانتقالية. الرسالة. معهد إعداد المعلمين العرب. كلية بيت بيرل.
- مصالحة، ز. (1998). فرويد ونظرية التحليل النفسي. الرسالة. معهد إعداد المعلمين العرب. كلية بيت بيرل.
- Baranger, W. (1975). *Semenario posgrado sobre el concepto de objeto in psi*



*coanalysis*. Instituto de psicoanalisis, Asociacion Psicoanalitica Argentina.

- Freud, S. (1905). *Three Essays on the Theory of Sexuality*. Trans James Strachey. New York: Basic Books.
- Freud, S. (1914). *On Narcissism*. In Strachey, J., Freud, A., & Richard, A. (1966). *The Standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud*. London: Hogarth Press.
- Freud, S. (1917). *Mourning and melancholia*. . In Strachey, J., Freud, A., & Richard, (1966). *The Standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud*. London: Hogarth Press.
- Greenberg, J. R., & Mitchell, S. A. (1983). *Object relation in psychoanalytic theory*. Harvard University Press, Cambridge MA.
- Mitchel, S., and Black, M. J. (2016). *Freud and Beyond: A History of Modern Thought*. Basic Books. New York.
- Kosciejew R.J. (2013). *Object relation theory*. AuthorHouse. Library of congress C.N.2013902356.
- Winnicott, D.W. (1945). *Primitive emotional development*. *Int. J. of Psychoanalysis*, 26:137-143.
- Winnicott, D.W. (1953). *Transitional objects and transitional phenomena*. *Int. J. of Psychoanalysis*, 34: 89 -97.
- Winnicott, D.W. (1958). *The capacity to be alone: In The maturational process and the facilitating environment*. London: Hogarth Press.
- Winnicott, D.W. (1969). *The use of an object*. *Int. J. of Psychoanalysis*, 50: 711-716.
- Winnicott, D.W. (1971). *Playing and reality*: Parts: 1,6. Middlesex, England: Penguin.
- Winnicott, D.W. (1990). *Home is Where We Start From: Essays by a Psychoanalyst*. Norton & Co. New York.

